شرح كتاب المطوَّل

في البلاغة

سعد الدين مسعود التفتازاني

د. محمود توفيق

المحاضرة السادسة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه، ومَن اهتدى بهديه إلى يوم الدِّين.

كنا قد توقفنا عند ما قاله بلاغيون حول ما يحقِّق للكلمة عدم انسجام أصواتها، وقلنا: إن فئةً أو ثُلةً منهم قالوا: إن لذلك أسبابًا موضوعيةً؛ وهو أن:

- **أصوات الكلمة إذا تباعدت مخارجها تباعدًا شديدًا أدَّى هذا إلى عُسْرٍ في النطق.**
- **وإذا تقاربت تقارُبًا شديدًا أدَّى أيضًا إلى عُسْرٍ في النطق.**

فقالوا: فيما يتعلَّق بهذا الجهاز الصوتي:

- إذا كان المخرج الحرفي من مسافة بعيدة قالوا: يشبِه القفز، والقفز فيه معاناةٌ، وفيه عُسْرٌ.

- إذا اقترب يقولون: أن هذا أشبه بالذي يمشي مقيَّدًا، وسواءٌ تباعدت الحروف مخرجًا، أو تقاربت مخرجًا قد يؤدي هذا إلى شيءٍ من النَّفرة، أو شيءٍ من الثِّقَل في الأداء!

لكن آخرين من أهل العلم قالوا: المسألة لا علاقة لها بالقُرب والبُعد؛ لأنَّا وجدنا في القرآن الكريم ما تقاربت مخارجه تقاربًا شديدًا، كما في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[يس:60].

وهذه الآية أرجو حين تقرأها، لكي تفهم جملة: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أن تفهم كلمة: ﴿أَعْهَدْ﴾ أولًا من الناحية البلاغية، لاحظ البلاغة هنا بالتركيز على كلمة ﴿أَعْهَدْ﴾: أن (الهمزة) و(العين) و(الهاء) كلها من مخرجٍ واحدٍ، تقاربت ومع ذلك لا نجد عُسْرًا في نطقها! فقالوا: هذه قاعدةٌ غير منضبطةٍ.

هذا حظ البلاغة عِلمًا، أما حظ البلاغة ذوقًا؛ فهي أشبه ما تكون عندنا بالملعقة، فأنا لا أهتم بالملعقة لذاتها، وإنما هي وسيلةٌ لإدخال الطعام وتذوقه.

طالب العلم ومجالس العلماء:

نفس الأمر بالنسبة لطالب العلم، فالملعقة في المثال تمثل مجالس العِلم، فطالب العِلم الذي يهتم بجمع العِلم، ومسائل العِلم، وكلام العلماء، وتلَقِّي دروس العِلم، بتنقُّل من درسٍ إلى درسٍ، فعبادته تلَقِّي العِلم، فمتى ستعمل به؟! متى تفكِّر فيه؟!

ليكن هدفك من حضور مجالس العلماء لقَدْر امتلاكك أداة الفهم، وبمجرد أن تشعر أنك تستطيع أن تفكر، وتفكر تفكيرًا موضوعيًّا منضبطًا؛ اترك هذه المسألة -مسألة التنقُّل بين مجالس العِلم- واعمد إلى كتابك في

خلوتك؛ لكي تعيش مرحلة الهضم، وتحويل ما سمعتَ إلى قوةٍ؛ فالطعام بالهضم يتحول إلى قوةٍ.

طيب، أنت تريد أن تحيل هذا العِلم -الذي فهمته وفكرتَ فيه- إلى قوةٍ فكريةٍ؛ ثم إلى قوةٍ عمليةٍ؛ اخرج إلى الشارع وطبِّق هذا الكلام، هذا هو العِلم النافع، العِلم النافع -حتى ولو كان في تفسير الطبري- إذا لم يتحوَّل إلى مرحلة تفكيرٍ؛ ثم مرحلة تفعيلٍ في الشارع فلستَ بأهله، ولستَ بطالب علمٍ، أنت محصِّل علمٍ، لستَ بطالب علمٍ.

فأنت إذا وصلتَ إلى مرحلةٍ معينةٍ، وستعرف نفسك إذا كنتَ قد وصلتَ إلى مرحلةٍ تستطيع أن تستقل فيها بالتفكير أم لا، وأن رجوعك للمشايخ لن يكون إلَّا لمعرفةِ إن كنتَ على صوابٍ أو على غير صوابٍ، ليس لأجل فقط أن تستمع.

أرجو ألَّا تضيِّعوا عمركم في حضور مجالس العِلم! إنما لا بد أن يكون على الأقل:

- ثلاثون بالمائة من الوقت المحدد للعِلم مُخصَّصًا لحضور مجالس العلماء.

- ثم بعد ذلك الثلث الثاني للتفكير.

- ثم الثلث الثالث للتفعيل في حركة الحياة.

بهذا يمكنك -في يومٍ من الأيام- أن تكون شيئًا مذكورًا عند ربِّك.

المهم، هذا الذي يقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ﴾[يس:60]. اقرأها في ضوء قصة سيدنا آدم مع إبليس، بينك وبين إبليس عداوةٌ متأصِّلةٌ! إبليس قتل أباك؛ تثأر لأبيك أو لا تثأر له؟! لو قتل أحدٌ والدك تصاحبه؟! تتزوج ابنته؟! هو قتل أبانا! أخرجه من الجنة إلى الأرض: ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[طه:117]. وهذا قتلٌ!

نحن نتعامل مع عدونا اللدود الذي أقسم باللهِ أن يكون لنا عدو! فلما تقرأ الآية في سورة (**يس**): ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[يس:60]. تقرأها في ضوء قصة أبينا آدم؛ تعرف مقدار ما لك على إبليس من حقوقٍ! بينكما ثأرٌ، في هذه الحالة لا تسمع وسوسته إلَّا كوسوسة خبيثٍ لا مستشارٍ! فأرجو أن يقرأ الناس هذا الكلام، وأيضًا لأن الآية إنما جاءت في سورة (**يس**) التي يُنسب في شأنها أنها قلب القرآن!

أنت ستذهب للشيخ الطاهر، وتفهم منه لماذا سُمِّيت (**يس**) قلب القرآن، سيخبرك لماذا هي قلب القرآن، وسيخبرك لماذا سورة (**البقرة**) سنام القرآن، انظر للقلب؛ ما وظيفته؟ هي وظيفة سورة (**يس**)، ووظيفة السنام بالنسبة للجَمَل؟ هي سورة (**البقرة**).

الشيخ سعيد حَوَّى وكتابه (الأساس في التفسير):

كان من ذكاء الشيخ سعيد حَوَّى -رحمه الله- أو رضي الله عنه؛ لأنه يستحق أن تقولوا عنه: رضي الله عنه! انظر لكتابه (**الأساس في التفسير**)

ستجد أنه أخذ مذهبًا؛ هو أن يربط كل سورةٍ من سور القرآن بآيةٍ من سورة (**البقرة**)، وهذا عملٌ شاقٌّ جدًّا جدًّا! كل سورةٍ يقول لك: هذه السورة منطلقةٌ مفصِّلةٌ لآية كذا في سورة (**البقرة**)!

الذي يُعرِّفكَ قَدْر هذا الرجل –سعيد حَوَّى- أن هذا التفسير أُلِّفَ وهو في المعتقل! ليس في غرفةٍ مكيفة الهواء! سعيد حَوَّى سوري الجنسية، وله كتبٌ كثيرةٌ، له (**الأساس في العقيدة**) وكتبٌ أخرى كثيرةٌ؛ لكنه لم يلقَ ما يستحق من التكريم! أو من البرِّ به!

☼ كيف يُكَرَّم العلماء؟

العلماء لا يُكَرَّمون بالنوط الأول، ووسام كذا، ووشاح كذا، لا، لا، التكريم الحقيقي للعالم من تلاميذه؛ بحُسْن الفهم عنه، ونشر عِلمه.

بِرُّك بشيخك أن تفهم عنه، وأن تنشر عِلمه؛ لأن عِلمه لما ينتشر؛ كل واحدٍ ينتفع بعلمه تُكتب لشيخك حسناتٌ، فأنت تستثمر عِلمه، هذا هو التكريم الحقيقي، تكريم العالم ليس بتقبيل يدٍ، ولا تقبيل رأسٍ، هذا شغل بِرِّ الهَلْكَى! كل علاقته بشيخه أن يقبِّل رأسه! أرجو ألَّا تكونوا هكذا، هذا الكلامُ من رزقكم، لم يكن في عقلي أن أتكلَّم فيه.

قال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ﴾[يس:60]. قال: ليس فيها ثِقَلٌ رغم قُرب (الهمزة) و(العين) و(الهاء)، فكيف تقولون: أن هذا هو السبب؟

قالوا: لا، السبب هو الذوق، الذوق هو مصدر استشعارك بالثِّقل من عدمه، ذهب إلى هذا السعد، وذهب إليه قبله ابن الأثير.

نقول: انتبهوا يا سادة! الذين قالوا: قُرْبٌ وبُعْدٌ لم يكونوا غافلين عن أنَّ أساس الشعور بالثِّقَل هو الذوق، يعرفون هذا جيدًا؛ وهذا الذوق مصدره المعرفة الفطرية.

الفرق بين المعرفة والعِلم:

- **المعرفة**: هي كل ما تدركه من الأشياء من الخارج ومن الداخل، هذه هي المعرفة، ولا تكون مُقنَّنةً؛ إنما هي منثورةٌ.

- **العِلم**: دور العِلم أن يُقَنِّن المعرفة، العِلم لا يُنشئ معرفةً جديدةً في الأصل؛ أنا أتكلَّم في العلوم الإنسانية، لا أتكلَّم في العلوم المنطقية، العلوم المتعلِّقة نسميها العلوم الإنسانية، هذه معارفَ فطريةٌ، أستوِي أنا فيها ورجل الشارع.

فرجل الشارع عنده معرفةٌ فطريةٌ، عنده معرفةٌ لكنها غير مُنظَّمةٍ، هذا الرجل يفكر كما أفكر، ليس هناك إنسانٌ مكلَّفٌ لا يفكِّر، كل البشر الأسوياء يفكرون.

لكن الفرق بين العالم، وطالب العِلم، والرجل غير طالب العِلم أن هذا يفكر بطريقةٍ غير منظمةٍ، غير موضوعيةٍ، غير منضبطةٍ بضوابط، العالم يفكر بطريقةٍ منضبطةٍ.

ولذلك إذا أعاد التفكير في المسألة فهو يسير في نفس الطوابق، الآخر لو أعاد التفكير في المسـألة فمرة يُشَـرِّق، ومرة يُغَرِّب؛ لأنه ليس لديه قواعدُ ضابطةٌ.

فأنت لما تطلب العِلم اعرف كيف تحيل المعرفة البشرية الفطرية -التي عند كل البشر الأسوياء- إلى علمٍ، كيف تحيلها إلى تفكيرٍ علميٍّ ممنهَجٍ له أصوله، وله ضوابطه، وله أسبابه وأدواته وروافده.

عِلم التفكير:

عِلم التفكير عِلمٌ موجودٌ الآن، له كتبه، له مدارسـه، هناك تفكيرٌ نقديٌّ، تفكيرٌ إبداعيٌّ، تفكيرٌ استرداديٌّ، أنواع التفكير كثيرةٌ جدًّا، فيها كتبٌ كثيرةٌ.

فأرجو أن تخصِّـص جزءً من وقتك أو من برنامجك القِرائي -إن كنت تصنع لنفسك برنامجًا قِرائيًّا- على الأقل من خمس ساعاتٍ إلى سبع ساعاتٍ في الأسبوع في هذه الكتب الثقافية التي تُثقِّفك، تقرأ في كتب التفكير، تقرأ في كذا، في كذا، الفرق بين التفكير العِلمي، وغير التفكير العِلمي، وأسـباب الخطأ في التفكير، كل هذا لا بد لك أن تقرأه، نسميها العلوم التثقيفية.

فمثلًا وأنا أكوِّن شخصيتي العِلمية، أحرص أن يتكون برنامجي القرائي من ثلاثة جوانب:

الجانب الأول مُتعلِّقٌ بالتخصُّـص: طالب العِلم المتفرغ للعِلم ينبغي ألَّا تقل عدد ساعات قراءته الجادة -القراءة الاحترافية- عن عشر ساعاتٍ لكي

تكون طالب عِلمٍ، ليس أمامك تلفاز، وهاتفك مغلق، عشر ساعات هم الذين يجعلونك من الممكن -لما تصل لسن الأربعين- أن يؤخذ عنك!

هذه الساعات العشر، على الأقل منهم خمس إلى ست ساعاتٍ في التخصُّص، أنت متخصِّصٌ في الفقه مثلًا؛ فتقرأ فيهم في الفقه.

الجانب الثاني مُتعلِّقٌ بالعلوم المساعدة: كل علمٍ له علومٌ مساعدةٌ، طالب علم الفقه يلزمه أن يكون دارسًا لعلم النَّفْس الفقهي، دارسًا لعلم الاجتماعِ، فأنت تحتاج هذا لكي تصبح فقيهًا؛ لأن الفقه ليس مجرد أن تعرف استخراج الحُكم من النص، استخرجته فكيف ستستعمله؟ كيف تُنزله على الحالة؟ هذا نسميه فقه التنزيل.

سلسلة كتاب الأمَّة:

كانت هناك سلسلةٌ اسمها (كتاب الأمَّة) تصدُر في قطر، تصدر كل شهر، مكونة من جزئين -من عددين- اسمها فقه التنزيل، كل نسخ (كتاب الأمَّة) موجودة على الموقع، اقرأ فقه التنزيل؛ يعني كيف تُنزِّل الحُكم الذي تستنبطه على الواقع، نحن لا نُدرِّس هذا في كلية الشريعة، نحن نُدرِّس استنباط المعنى من النص.

☼ طيب، أنت عرفتَ الحُكم الشرعي، كيف تطبِّقه؟ هل تطبِّقه على كل الناس؟!

الناس متفاوتةٌ، الذي يعيش في المدينة غير الذي يعيش في القرية، غير الذي يعيش في الصحراء، غير الذي يعيش في السواحل؛ فلا بد للفقيه أن يدرس حالة المستفتِي؛ وبناء على هذا يتغيَّر الحُكم حسب حالة وظروف المستفتِي، فتغايُر الحُكم كما يكون بتغايُر الزمان يكون بتغايُر الأشخاص أيضًا، فهذا يلزم الفقيه، يلزمه أن يكون لديه هذه العلوم المساعدة.

وهناك علومٌ غير مساعدةٍ، وهذه للثقافة واتساع الأفق، نعود إلى موضوعنا.

☼ لماذا قال العلماء بتباعُد وتقارُب المخارج رغم عِلمهم بأن أساس الثِّقل الذوق؟

يقول: هو يدرك أن أساس الإدراك لثقل الكلام أنه الذوق، الذوق معرفةٌ فطريةٌ ذاتيةٌ غير منضبطةٍ، تختلف من شخصٍ إلى شخصٍ، أنا أريد أن أُعَلْمِنْهَا، أحوِّلها من شيءٍ ذوقيٍّ غير موضوعيٍّ إلى شيءٍ موضوعيٍّ لكي نتقارب، فيحولها إلى عِلمٍ.

فيقول: هناك أسبابٌ موضوعيةٌ لكن غير مضطردةٍ، يقول: ومتى كانت قوانين العِلم مضطردةً؟ لا يوجد قانونٌ علميٌّ مضطردٌ، وإنما الاعتبار في الكثرة والقلة، فلو عندك سبعين في المائة من قانونك مضطردٌ؛ إذًا القانون صحيحٌ.

أبو حنيفة والفقه الحنفي:

بمناسبة ذكر الاضطراد وغير الاضطراد، الذين يدرسون الفقه الحنفي، الإمام أبي حنيفة يعتد بالكثرة، يعتبر الكثرة في حُكم الكل، ما دام يوجد أغلبيةٌ إذًا يؤخذ بما ينطبق على الأغلبية، ويكون الجزء الثاني له حُكمٌ خاصٌّ يتغيَّر بتغيُّر دراسة هذا الجزء.

هذا هو تفكير الشيخ أبي حنيفة، هذا معنى كلمة أنهم فقهاء الرأي! يعني لا يأخذ النص هكذا، لكن يفكِّر فيه، ويعتبر أمورًا ولا يعتبر أمورًا، إلى آخر هذه الأمور، لكن لا يتخذ رأيه مصـــدرًا للفتوى، وإنما يتخذ رأيه وتفكيره للتعامُل مع ما استنبطه من النص.

فالذين يتهمون أبا حنيفة أنه علمانيٌّ أو عقلانيٌّ! ومعاذ الله أن يكون! معاذ الله أن يجعل من روافد ومصادر الاستنباط عنده عقله أو رأيه! لو كان؛ ما كان للأمَّة أن تتخذه إمامًا على الإطلاق!

الرجل يقول: أن ما يستنبطه من الكتاب والسُّنَّة يتعامل معه بعد ذلك بفِكره، لا يطبِّقه تطبيقًا حرفيًّا على كل خَلْق الله، وإنما يتخذ لفكره مجالًا في تنزيل النص، لا في الاستنباط.

أرجو أن يُفهم متى يستخدم أبو حنيفة الرأي؟ يستخدمه في فقه التنزيل لا في فقه الاستنباط، لكي تكفوا عن سب أبي حنيفة! لو كان كذلك ما كان لمالك أن يتلقَّاه ويجلس إليه! وهذا مالكٌ!

الذين يتكلَّمون في قضـــية كذا، وقضـــية كذا، هؤلاء يســـعون إلى عَلمَنَة الفن، يحوِّله إلى علمٍ مُقنَّن وإن لم يكن مضطردًا اضطرادًا تامًّا.

الفرق بين التفكير العِلمي والتفكير غير العِلمي ثلاثة أشياء كما ذكرنا:

- **أن يكون موضوعيًّا.**
- **أن يكون منتظمًا.**
- **أن يكون مضطردًا.**

فنقول في الاضطراد: اضطرادٌ أغلبيٌّ، وليس اضطرادًا إحاطيًّا.

كتاب (الموافقات) للشاطبي:

لما تقرأ في كتاب (**الموافقات**) للشـيخ الشـاطبي، لازم تقرأ هذا الكتاب! لما تكلَّم عن قضـــية الاســـتقراء، وضـــرورة الاســـتقراء، قال: ليس هناك —في الغالب– استقراءٌ تامٌّ، وإنما استقراءٌ ناقصٌ دائمًا، الاستقراء التام صعبٌ جدًّا! لكن نحن نقول له: ممكن أن نعمل استقراءً تامًّا في القرآن؛ لأنه منضبطٌ، لكن في غير القرآن لا تكون هناك إحاطةٌ.

يعني لما أكلِّف طالب أن يُعِدَّ لي دراسة عن خصائص أساليب النفي عند فلان، لا يستطيع أن يعمل استقراءً تامًّا، فنكتفي منه بالاستقراء الناقص.

لكن لو في القرآن؛ أقول له: لا، لا بد وأن يكون استقراءً تامًّا؛ لأن النص منضـــبطٌ أمامك، لكن على شـــريطة أن يكون على قراءةٍ معينةٍ، تحدِّدها لي، تقول لي: دراســـة أو بلاغة أســـاليب النفي في القرآن على قراءة حفصٍ مثلًا،

لماذا؟ لأنه لو قلتَ في القرآن فقط، فأنت مكلَّفٌ بالقراءات العشر؛ لأنه ممكن أن يوجد نفيٌّ على قراءةٍ، وليس بنفيٍّ على قراءةٍ أخرى.

وأقول لطلبة الدراسات العليا لكي يكون الاستقراء تامًّا حدِّد في العنوان أو في المقدِّمة أنك على قراءة حفصٍ، أو قراءة حمزة، أو قراءة كذا، حتى لا يستدرك عليك أحدٌ.

هذا بالنسبة لما يتعلَّق بقضية التنافُر، سواء كان تنافُرَ حروفٍ أو تنافُرَ كلماتٍ متقاربةٍ، يعني عندما تذاكر درس تنافُر الكلمات ذاكِره مع درس تنافُر الحروف؛ لأنهما من جنسٍ واحدٍ، لكن الاختلاف في مجال التنافُر.

فلو أن السكَّاكي جمع الأمرين معًا لكان أفضل: تنافُر الكَلِم والكلام، ويدرس الاثنين معًا، هذا أفضل، فلا تدرِّس لي تنأُفر الحروف، ثم بعد عشرين صفحة مثلًا تدرِّس لي ثانية تنافُر الكلمات.

هناك شيءٌ ما من الخلل في التنظيم مثلما سيأتي -بعد قليلٍ- ويقول: حذف المسند إليه، وينتهي من المسند إليه، ثم يعود ثانية ويقول: حذف المسند، ثم يعود ثانية ويقول: حذف المتعلِّقات.

نقول له: لو أنك شيخنا جمعتَ كل مناطات الحذف في بابٍ واحدٍ لكان أفضل، فيكون الطالب مستغرقًا في أسلوبٍ واحدٍ وهو أسلوب الحذف، أو في أسلوب الذكر، أو في أسلوب التعريف، اجمع لي الثلاثة في مكانٍ واحدٍ.

الشيخ أحمد مصطفى المراغي وكتابه (علوم البلاغة):

الشيخ أحمد مصطفى المراغي صاحب كتاب (**علوم البلاغة**) كان قاضيًا في السودان، لما أراد أن يؤلِّف كتاب (علوم البلاغة) جمع القول في الحذف في بابٍ واحدٍ، والقول في الذكر في بابٍ واحدٍ، فيسَّر علينا، وهذا مهمٌّ جدًّا؛ لأن تيسير العلم –كما قلتُ– مأمورٌ به.

سيدنا رسول الله –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم– قال:

«**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا**».

البخاري وضع هذا الحديث في باب العِلم، ثم في باب الأدب، انظر فقه الإمام**!** لأنك إذا يسَّرتَ العِلم على الناس فقد حللتَ لهم كل مشكلاتهم**!** فلا بد أن يُيسَّر العِلم للناس ولا يُعسَّر عليهم.

تيسير العِلم ليس معناه أن تقدم للطالب المسائل السهلة دون الصعبة، لا، وإنما يسِّر له الصعبة**!** اجعله أهلًا لأن يفهم ما عسُر؛ هذا هو التيسير.

انتقَل بي بعد تنافُر الكلمات إلى:

[غرابة الكلام]

لكن قبلها توجد نقطةٌ اعتراضيةٌ، بعض الناس يقولون: "**إن وجود كلمةٍ غير فصيحةٍ في النص لا تجعل الكلام غير فصيحٍ**"؛ أي أن الكلمة أو

الكلمات غير الفصـيحة لا تجعل كل الكلام غير فصـيح، بعضـهم قال هذا، وبالتالي أجازوا أن يكون في القرآن كلامًا غير فصيحٍ، مثل:

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[هود:28].

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾: الكلمة فيها ثِقلٌ، ولكي تتيسَّـر أقول: (أنُلزمكم إياها) أحوِّلها إلى كلمتين، لكن القرآن جمع الضـميرين معًا، وأسـندهما إلى الفاعل فقال: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾: فيها فعلٌ وفاعلٌ ومفعولٌ به، والفاعل والمفعول ضمائر.

النحو يقول: الأعلى أن تأتي بالضـمير منفصـلًا، تقول: (أنلزمكم إياها) ليخف الأداء.

نقول له: هل القرآن لا يعرف النحو؟! هل أخطأ القرآن؟! غير ممكنٍ، نقول له: ارجع إلى طبيعة الفعل، هذا استفهام إنكاري، يعني هذا لا يكون:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[هود:28].

﴿فَعُمِّيَتْ﴾ لم يقل: فَعَمِيَتْ، قال: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾: ما التي عُمِّيَت؟ أُسْنِد هذا الفعل إلى الآية، طبعًا هذا فعلٌ مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله، إياك أن تقول في القرآن: مبني للمجهول، تقول: مبني لما لم يُسمَّ فاعله: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ لغير الفاعل، وأُسندت إلى نائب الفاعل التي هي الآيات.

طيب، هل الآيات تُعَمَّى؟ هل هي عُمِّيَت؟ لا، هم مَنْ عموا، ولكن أسندها إلى الآيات ليقول: أنها صارت في حقك كأنها هي التي عُمِّيَت، بينما أنت الذي عُمِّي عليك، فهنا تعميةٌ لا تستطيع أن تراها.

ثم قال: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾؟ لا يكون، إذًا الاستفهام هنا إنكاريٌّ للنفي، لن يكون ذلك مني، لن أكرهكم على أن تفهموا، لن أكرِهكم على أن تؤمنوا؛ لأن الإكراه مفسدةٌ حتى في باب الإيمان! فالإكراه لا ينتج إلَّا فسادًا!

فلا تُكرِه ولدك أو زوجك على أمرٍ؛ لأنه لن يأتي البتة إلَّا بفسادٍ! ولذلك جاء في الشرع أنه لا يجوز أن تُكرَه امرأةٌ على أن تتزوج رجلًا معينًا، أو تبقى معه بعد الزواج، تزوجت ثم لا تستطيع أن تقيم معه؛ فإياك إياك أن تُكرِهها على البقاء معه! فقد جعل الله لك سبيلًا، فالإكراه لا يكون أبدًا! فأرجو ألَّا نسلك هذا الطريق، لا مع الطلاب، ولا مع أبنائنا، ولا مع أزواجنا، ولا مع أي أحدٍ، هذا ينبغي أن ينتفي من حياتنا، لا بد من الرضا.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ يقول: هذا الإلزام شيءٌ كريهٌ إليَّ، لن يكون مني، كما أن نُطق الكلمة ثقيلٌ على اللسان؛ فالفعل نفسه ثقيلٌ على قلبي! أعرفتَ ما يرمز إليه؟ يقول: هو ثقيلٌ على سمعك، وثقيلٌ على قلبي أن أفعله!

هذا يسمونه **التصوير الصوتي للمعنى**، أن أفهم المعنى من الصوت، وأحسن مَنْ يعلِّمك هذا الكلام ابن جني في (**الخصائص**)، اجعله خدينًا، ما دمت تشتغل مع اللغة اجعله خدينك، تعرفون معنى الخدين طبعًا، الخدين غير الصاحب وغير الصديق، الخدين هو الملازِم، الصاحب الملازِم النَّصوح،

فاجعل هذا الكتاب كما لك وِردٌ في القرآن اجعل لك وِردٌ في كتب علمٍ معينةٍ، منها كتاب (**الخصائص**) لابن جني، مع أنه ليس بعربيٍّ!

ثلاثة أرباع علماء اللغة العربية ليســوا عَربًا! بدءً من ســيبويه حتى أخونا الذي يُدَرِّس في الأزهر؛ هناك أحد الأفارقة يُدَرِّس النحو في الأزهر، ويُدَرِّس المتنبي، وأشياء كثيرةً جدًّا، لا أتذكر اسمه، وهذا يبشِّر كل طالبٍ وافدٍ أنه ممكن أن يصل لهذه المرتبة، لا تيأس، علو الهمة، أول صفةٍ من صفات طالب العِلم علو الهمة!

يورِد الاعتراض، يقول: هناك مَنْ يعترض، وهذا مهمٌّ جدًّا في كتابة العِلم، أنك لما تتكلَّم في مســألةٍ تخيَّل؛ أيمكن أن يُعتَرَض عليَّ؟ ماذا لو سُــئلتُ فبِم أجيب؟ تخيَّل الاعتراض وكأنك صاحب الاعتراض؛ ثم تجيب عنه.

وهذا سبيلٌ من سبل تيسير العِلم، بدلا من أن يحتاج القارئ أن يسأل؛ أنا صاحب الكتاب سأسأل وأجيب لك على السؤال الذي يمكن أن تسأله، حتى لو كنتَ من الذين لا يعرفون الاعتراضــات؛ لما أقول لك: ممكن تقول كذا، وأنا ســأرُد عليك، إذًا أنا علَّمتك كيف تعترض، هذا اسمه: منهج إنْ قلتَ قلتُ.

معنى هذا كأنه يقول: أنا قلتُ المســألة، وفي عقلي ماذا يمكن أن يُحدِث هذا الكلام في عقول الآخرين من تساؤلاتٍ، فأنا سأتساءل مكانهم وأجيب، فإن كان لديك تساؤلات أخرى لم تَرِد على عقلي فقُلها.

السعد يفعل هذا كثيرًا جدًّا، يورِد الاعتراض، ثم يرُد عليه، فيقول:

[القول بأن وجود كلمةٍ في القرآن ليست بفصيحةٍ هذا مضرٌّ جدًّا]

لأنه يعني أن الشـــرط عندنا أن يكون الكلام كله خلاءً من عيبٍ من عيوب فصـــاحة الكلام، والمتكلِّم بالقرآن هو الله! فكيف يكون الله تعالى غير مقتدرٍ على أن يأتي بكلمةٍ فصـــيحةٍ قائمةٍ بالمعنى الذي يريد؟! يُسَـــمَّى هذا عجزٌ! ولا يجوز في حق الجليل! لأنه يُفضـــي إلى القول بالعجز لأن الله جاء بكلمةٍ غير فصيحةٍ! وهو –سبحانه وتعالى– خالق كل شيءٍ!

طبعًا القرآن ليس مخلوقًا، الله قادرٌ على كل شـيءٍ، هو سـبحانه يعلم إذا كانت هذه الكلمة سـتكون فصـيحةً، أو فيها ثقل على الألسـن، لكن هو سبحانه يوظِّف هذا الثِّقل كما قال:

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾[هود:28].

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾[التوبة:38].

أترى التصـوير الصـوتي في كلمة: ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ تصـوِّر حال القاعدين عن الجهاد، وانظر الطباق الذي بين: ﴿انفِرُوا﴾، ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ طباقٌ شـديدٌ جدًّا! يصـــوِّر حالتين: حالة فَزْعةٍ، مطلوبٌ منك أن تفزع، وأنت بالمقابل كأنك لا تدرك حركة الحياة التي أنت فيها! حركة الحياة تطلب منك أن تنفر في ســـبيل الله، وأنت لا تلبي! هذا شيءٌ معناه خللٌ عقليٌّ!

لما تقرأ كلام الحق -سبحانه وتعالى- في آيات المنافقين، دائمًا تجد أن الكلام يؤول إلى تبيين فسادٍ في عقولهم، ليس فسادًا في السلوك، فسادٌ في العقل، حتى لما يتكلَّم عن الكفرة، تجده في النهاية يبيِّن أن هذا لديه خللٌ في عقله، فلا تتخذه وليًّا؛ لأن العيب ليس في سلوكه حتى يُصْلَح، الداء موجودٌ في العقل، فكيف تتخذه أسوةً؟! وكيف تتخذه مستشارًا وهو لديه خللٌ في عقله؟! غير قادرٍ على إنجاء نفسه من الهلَك، ينهانا -سبحانه وتعالى- أن نتخذ الكفرة أولياء من دون الله.

اقرأ كتاب (**الثقافة في مصر**) لطه حسين، لا بد أن تقرأه، يُباع في الهيئة المصرية العامة للكتاب في سلسلة مكتبة الأسرة، ينبغي لكل طالب علمٍ أن يقرأ هذا الكتاب.

واقرأ بعده رسالة (**الطريق إلى ثقافتنا**) للشيخ محمود شلتوت، ثم قارن بعد ذلك بين الكتابين والكاتبين.

☼ هل في القرآن كلامٌ أعجميٌّ؟

هناك مَنْ قال: مسألة الكلمة في القرآن الغير فصيحةٍ ليست مشكلةً كبيرةً؛ لأن القرآن يقول: ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾**[الشعراء:195]**. وفيه كلمات ليست عربيةً، فكما أن عدم عروبة الكلمة لم تُخرِج القرآن من كونه عربيًّا، كذلك الكلمة الغير فصيحة لا تُخرِج القرآن من كونه فصيحًا، أعرفتم الحوار والجدل الذي يدور؟

لكي تعرف هل في القرآن كلامٌ أعجميٌّ أو ليس فيه كلامٌ أعجميٌّ؟ اقرأ أول ما بدأ به الشافعي في (**الرسالة**)، أول ما يَنصح به: "**اعْلَم بأن القرآن بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ وليس فيه كلمةٌ واحدةٌ غير عربيةٍ**".

كيف؟ وكلمة فردوس؟ وكلمة كذا؟ وكلمة كذا؟ والشيخ الطبري أيضًا في تفسيره القيم، هذا الرجل الذي لم يوفَّ حقه حتى هذه اللحظة، إخوانا الذين يدرسون في قسم التفسير ينبغي أن يكونوا بارِّين بهذا الرجل! لأنه لم يُدْرَس تفسيره دراسة جيدة.

كيف لا يوجد في القرآن كلامٌ أعجميٌّ؟ وعندنا في كتب عن لغة القرآن هناك ما يُنسب لسيدنا ابن عباس –إن كان الكلام لابن عباس– أن فيه من لغة الحَبَش، وفيه من لغة كذا، وعَدَّد لنا اللغات الموجودة في القرآن الكريم؟

☼ **والسؤال: مَنْ قال لك أن أصل النطق بالكلمة كان غير عربيٍّ؟ مَنْ قال لك أن العرب هم الذين أخذوا الكلمة من الفُرس أو الهند؟ لِم لا يكون الفُرس أو الهند هم الذين أخذوا من العرب؟ لِم حكمتَ بأن العربية آخذةٌ لا مأخوذٌ منها؟!**

أولًا: حكمتَ على غير بينةٍ مقطوعٍ بها!

ثانيًا: أن الكلمة الأعجمية إذا أخذتها العرب من غيرها –من الفُرس مثلًا– أحالتها إلى كلمةٍ عربيةٍ، تصرَّفت فيها تصرُّفًا يجري على ما يجري عليه الكَلِم العربي، استحالت وإن كانت في أصلها خرجت من رحمٍ غير عربيٍّ،

لكنها لما عاشت وجرت في ألسنة العرب أقاموها على صيغةٍ صرفيةٍ معينةٍ، مثل كلمة: إبراهيم.

أسماء الأنبياء كلهم -الذين ليسوا بعربٍ- سيدنا هود، سيدنا صالح، قالوا: إن أسماءهم في لسان القرآن ليست بالذي كان في لسان قومهم، فاليهود لا يعرفون كلمة موسى، ولا يعرفون كلمة إبراهيم، كلمة إبراهيم كلمةٌ عربيةٌ، أجرى اللسان العربي فيها ما أحالها إلى كلمةٍ عربيةٍ.

وهذا يقول لك: الذي فعله القرآن في الكلمة يفعله فيك إن كنت غير عربيٍّ، تستحيل بالقرآن من كونك هنديًّا أو فارسيًّا أو روميًّا تستحيل بالقرآن إلى كونك عربي: «**سَلْمَان مِنَّا آلَ البَيْتِ**».

ولذلك قالوا: العربي هو مَنْ تكلَّم بالعربية، وليس لنَسبه أنه عربيٌّ، فأنت عربيٌّ لأنك تتكلَّم العربية، فأنت ابن لسانك لا ابن نسَبك، وبالتالي فالمرء ابن لسانه؛ لأن لسانه صورة فِكْره، فإذا كان لسانك عربيًّا، فلا بد وأن يكون تفكيرك وهمُّك عربيًّا.

مؤدَّى هذا أن مَنْ كان تفكيره ليس بعربيٍّ -وإن كان أفصح من امرئ القيس- فليس بعربيٍّ، إن كان همك في الحياة ليس همًّا عربيًّا، وإن كان خلُقك في الحياة ليس خُلُقًا عربيًّا، وإن كان تفكيرك ليس تفكيرًا عربيًّا، فإن كنت أفصح مَنْ نَطق بالضاد؛ فما أنت بعربيٍّ!

هناك كتابٌ اسمه (**اللغة والمجاز**) للمسيري، لا بد أن تقرأه، موجودٌ على الموقع، أنا لما رأيتُ الكتاب اعتقدتُ -من عنوانه- أنه بلاغةٌ، فقرأت الكتاب ورأيت الرجل لا يتكلَّم في مجاز اللغة، يقول: كيف يكون اللسان مجازًا إلى الولاء، أرأيتَ البُعد الفكري؟! كيف تكون اللغة مجازًا وطريقًا إلى ولاء صاحب اللغة، وانتقل إلى شيءٍ آخر، وقال: بل الطعام أيضًا طريقٌ إلى الولاء لمنشأ هذا الطعام.

فمسألة أن القرآن فيه كلامٌ غير عربيٍّ؛ نقول: لا توجد كلمةٌ في القرآن في هيئتها وفي صوتها وفي معناها ليست عربيةً على الإطلاق، حتى وإن فرضنا أن أصلها حبشية، أو أصلها هندية، أو أصلها فارسية، أو أصلها رومية، فقد خُلِعت من جنسها، وصارت بما أُجري عليها عربيةٌ.

وكذلك أنتَ، كنت مصريًّا، فبالقرآن والإسلام صِرتَ عربيًّا، فبالتالي القرآن هو الذي يشكِّل كينونيتك ووجودك، هذا هو ما ينبغي أن تفهمه.

لا يعنيني إطلاقًا مسألة السعد ولا البلاغة، يعنيني هذا الكلام، لأن كتاب المطوَّل وحده هكذا لن يفعل فيك شيئًا، تقرأه وتحفظه، ثم ماذا؟ لكن لا بد أن تقرأ الأشياء ووقعها، وتربطها بالحياة حولك؛ لكي تعرف أين أنتَ؟ العِلم للعمل، العِلم لإعمار الحياة، سواء بكونها أو إنسانها.

مَنْ لم يفعل ذلك، أو لم يكن هدفه ذلك، نقول له: ليس العِلم طريقك إلى الجنة! العِلم لا يكون طريقًا إلى الجنة إلَّا إذا أحلته إلى عملٍ تعمِّر به

الحياة، غير هذا فاشتغل في أي شيءٍ إلَّا العِلم! أفضل لك من أن تحصُل على أعلى درجات العِلم وأنت لا تربط ما أخذتَ بحياتك وحياة الناس من حولك.

نأتي إلى مسألة الغرابة، وهذا أيضًا مهمٌّ في حياتك، يعني انقله من كلامٍ في اللغة إلى كلامٍ في الواقع، هل أنت غريبٌ عن دينك؟ هل أنت غريبٌ عن وطنك؟ فالذي ستفهمه من الغرابة خذه وحوِّله إلى حياتك، أنا فصيحٌ أم غريب؟ هل أنا في قولي غريبٌ؟

الرسول -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يقول: «**طُوبَى لِلْغُرَبَاء**». إذًا الغربة في زماننا فصاحةٌ أم لا؟ فصاحةٌ إيمانيةٌ، انقلها من فصاحةٍ لسانيةٍ إلى فصاحةٍ إيمانيةٍ.

الغرابة عند البلاغيين ليست فصاحةً لسانيةً، نقول له: ولكن عندنا في علم السلوك الغُربة في مثل سياقنا الاجتماعي فصاحةٌ إيمانيةٌ: «**طُوبَى لِلْغُرَبَاء**». فكن غريبًا في سلوكك لا في لسانك.

☼ ما هو الغريب؟

أصل كلمة الغريب أنها أمرٌ غير مأنوسٍ، غير معهودٍ، فأنت لما تذهب إلى أي قريةٍ، أي قبيلةٍ، بمجرد أن يرونك يعرفون أنك غريبٌ، لستَ من أهل القرية، إذًا الغريب هو ما لم تأنس به النَّفْس، لا يُتداوَل لقلَّة الاستعمال، لهذا بدأ عندنا ما يُسمَّى بعلم غريب القرآن، وعلم غريب الحديث.

نشـــأ هذا في القرن الثالث الهجري، ومن أمتع الكتب في هذا هو كتاب (**غريب القرآن**) لأبي ســـليمان حمَد الخطَّابي صـــاحب كتاب (بيان إعجاز القرآن)، هذا الكتاب مهمٌّ جدًّا بالنسـبة لطلاب الحديث، وطلاب التفسـير، وطلاب اللغة العربية، مهمٌّ جدًّا جدًّا جدًّا؛ لأن الرجل إمامٌ في علم الحديث، إمامٌ في علم اللغة، وإمامٌ في علم البلاغة، جمع الإمامة في هذه الأشياء الثلاثة، وهو أول مَنْ شرح البخاري شرحًا تأليفيًّا.

كتاب (**غريب القرآن**) ثلاثة مجلدات، يمكنكم الحصـــول عليه من مركز بيع الكتاب بجامعة أم القرى إن كان لكم أحد بمكة.

[الغرابة كون الكلمة وحشيةً غير ظاهرة المعنى، ولا مأنوسة الاستعمال]

لو قال: [**الغرابة كون الكلمة وحشـيةً**] وسـكت لتم المعنى؛ لأنك تدرك معنى الوحشية، معناها: ليس هناك ثمة أُنسٍ أو طمأنينةٍ.

أنـت لما تقول لولـدك بـالعـامية: (أنـت وِحِش) يعني أنـا لا آنس بـالفعل الذي فعلتَ، هذا يُحدِث في صـدري رَهَبًا، أخشـى منك، ما فعلتَ أحدَث في قلبي وَحشـــةً وتخوُّفًا منـك أنـك إذا مـا كبرت على هـذا النمط أن تكون في الأرض مفسدًا، أرأيتم معنى الكلمة؟

فالكلمة الوحشـــية هي الكلمة التي لا تأنس بها النَّفْس، وإذا لم تأنس بها النَّفْس لا تفهمها، وإذا لم تفهمها لا تسـتعملها، إذًا الضـرر عائد أصـلًا على

مَنْ؟ على الكلمة نفسها؛ لأني لما استوحشتُ منها فارقتها ولم أطمئن إليها، وإذا فارقتها ولم أطمئن إليها فلن أستعملها، وحياة الكلمة استعمالها، فإذا ما تركتُها أَمَتُّها!

فإذا قال: [**الغرابة كون الكلمة وحشيةً**] انتبهوا إلى الفعل (كان)، لما يقول: (كون كذا)، (كان كذا)، جرِّدها من الدلالة على الزمان؛ لأنها تدل على وجود الفعل في زمنٍ سبق، جرِّد الحدَث من الزمن السابق، وتكون متفردة لمعنًى واحدٍ، وهي أن هذا الفعل صار في كينونيتك، جزء من وجودك الشخصي، سمة من مكونات شخصيتك، لما تقول: (كان محمدٌ كريمًا)، أنت تمدحه أم تذمه؟ لو جئتَ بالزمان فهو ذمٌّ، وإن جردتها من الزمان فهو مدحٌ.

لما يأتي في اختبار المسابقات، ويقول: لو قلتُ لك: (كان محمدٌ كريمًا)، أتراه مدحًا أم ذمًّا؟ الغير منتبه يقول: هذا كلامٌ موجَّهٌ، يعني له وجهان، إن جرَّدتها من زمان المضي كانت مدحًا وثناء؛ لأن معناها أن الكرم أمرٌ مستقرٌّ في وجوده وكينونيته، فحيث حل كان كريمًا، وحيث كان حاله معك كان كريمًا، إن أغضبته فهو كريمٌ، وإن صاحبته فهو كريمٌ، فهذا الرجل مخلوقٌ من الكرم، انظر ماذا فعل التجريد في المعنى!

في اللغة سلبنا من كلمة (كان) الزمان، فلنطبِّق هذا على واقع حياتنا، لنجد أن كل سلبٍ ليس بنقمةٍ، فبعض السَّلب فيضٌ من النِّعم، كبار السن الذين اضطرتهم قدرتهم البدنية بسبب الكبر في السن على البقاء في البيت، لا تظن أن هذا عقوبةٌ أو نقمةٌ من الله! أُخذت منك الحركة لتقيم مع ربك ذاكرًا،

أبقاك في البيت لكي تكون ذاكرًا لربك، إذًا سَلْب الحركة كان منفعةً لك، وتستحيل بهذا السلب ذاكرًا لله، فإذا كنتَ ذاكرًا لله كنتَ مذكورًا، رقَّاك من كونك ذاكرًا له إلى كونك مذكورًا منه، فأنت الذاكر المذكور، ما الذي أعطاك هذا؟ الكِبر والضعف، إذًا ليس كل سلبٍ نقمةً، فبعض السلب فيضٌ من النِّعم.

وجدنا هذا في اللغة في كلمة (كان)، سلبنا منها الزمان فانفتحت دلالتها، لو بقيت دلالتها لقيَّدت المعنى، اقرأ اللغة بطريقة تربطها بحياتك، ستجد لذة وأنت تقرأ اللغة، ليست مجرد كلامٍ، بل منهج حياةٍ، اللغة منهج حياةٍ، حاول قدر الطاقة أن تتدرَّب على هذا، في البداية سيكون الأمر عسِرًا، لكن مع مَنْ داوم الطَّرق فُتِح له، ليس هناك بابٌ من العلم يُفتح بأول طرْقٍ عليه!

طلب العِلم أشبه بالمرأة الحَصَان الرزان، لا تفتح أبوابها إلَّا لمن دخل بإذنٍ شرعيٍّ، ودفع صداقها، فأبواب العِلم هكذا، وتتلقى العِلم عن طريق شيخٍ، تلقِّي العِلم عن طريق الأوراق مُفسِدٌ، ثم تدفع صداقه من جُهدك وعنايتك، مِن تركك للدنيا وأهلها، هذا هو صداق العِلم.

أريدك أن تفكر لماذا سمَّى الله مهر المرأة صداق؟ يقول: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[النساء:4]. كيف تنطقها: صَدَقاتهن أم ﴿صَدُقَاتِهِنَّ﴾؟ ما الفرق بين الكلمتين؟ ما الفرق بين صَدَقات وصَدُقات؟

أنت لما تدفع مهر زوجتك، هل تدفعه صَـدَقة؟ لو انتبهت للكلمة بعدها ســتعرف، كلمة: ﴿**نِحْلَةً**﴾ ما معناها؟ معناها تعبُّدٌ، نِحْلةٌ مفرد نِحَلٍ، النِّحَل والْمِلَل، فالنِّحلة هي تعبُّدٌ، شـرعٌ، حقٌّ شـرعيٌّ، انتبه جيدًا وأنت تدفع المهر لزوجتك أنت في عبادةٍ؛ لأنك تقول لها: أنا صـادقٌ في طلبي، وآية صـدقي في طلبي ذلك الذي أهديته لكِ، فأنا أتعبَّد.

وبالتالي نقول لوالد البنت: إياك أن تتشـرَّط؛ لأنك إن اشـترطت فقد بِعتَ، هو ما جاء ليشـتري جمادًا، وأنت إن قيل لك: ادفع كذا وأنت مقتدر فإياك أن تقول: لا، فالمسألة ليست مسألة بيعٍ وشراءٍ، المسألة دليلٌ على صدقك في طلبها.

[**الغرابة كون الكلمة وحشيةً**]: ثم يفسِّر كلمة وحشية: [**غير ظاهرة المعنى، ولا مأنوسة الاستعمال**]: انتبهوا لقوله: [**غير ظاهرة المعنى**]: عندنا قاعدةٌ في البلاغة موجودةٌ في كتاب (**الصناعتين**) لأبي هلال العسكري.

وأفضل من كتاب (**الصناعتين**) كتاب (**فروق في اللغة**)، كتاب (الصناعتين) ثمة ما يُغني عنه، لكن كتاب (فروق في اللغة) ليس ثمة ما يُغني عنه! ممكن ألَّا أقرأ (الصناعتين)، أقرأ أي كتابٍ آخر في البلاغة، وسأجد ما في (الصناعتين) في الكتب الأخَر، لكن الذي في كتاب (فروق في اللغة) ما لا تجده في غيره، وبالتالي أعليته عليه!

لأن قيمة الكتاب أن تجد فيه ما لا تجده في غيره، لا يغني عنه غيره، كَتب حوالي عشرين صفحة مقدمة الكتاب، لكي تفهمهم تحتاج شهرين! من أمتع ما تُكُلِّم في هذا الباب!

الذي يقرأ (الصناعتين) قبل كتاب (فروق في اللغة) كمن يقرأ سورة الناس قبل سورة الفاتحة! لا يُفهم كتاب (الصناعتين) إلَّا من خلال (فروق في اللغة)، فهذا الكتاب مهمٌّ جدًّا.

☼ ماذا يقول في (الصناعتين)؟

يقول: "**وسُفور المعنى في الكلام البليغ قُبْحٌ**" جعله كسفور المرأة، يقول: المفروض أن المعنى لا يكون سافرًا، يكون مغلَّفًا ولو بغلافٍ رقيقٍ، لا بمجرد أن تسمع تستنفذ كل ما فيه من معنًى، هذا هو القُبح؛ لأني لو كلَّمتك كلامًا بمجرد أن تسمعه استنفذتَ كل ما فيه فقد مات النص!

☼ متى يحيا النص؟

لما تقرأ مرةً يعطيك شيئًا من المعنى وليس كل المعاني، وكلما قرأتَ كلما أعطاك شيئًا آخر من المعنى، هذا هو النص الذي نسميه النص البليغ، لكن لو بمجرد أن تقرأه تستنفذ المعنى فصاحب هذا النص ليس رجلًا بليغًا، لهذا قال: سفور المعنى -أي انكشافه- قُبْحٌ.

السكاكي يكلِّمك على المعنى في السياق، في التركيب، يقول: المعاني في التراكيب لا بد أن تكون كالمرأة الحَصَان الرزان، فلا تعطيك العبارة معانيها إلَّا

بعد تفكيرٍ، الذي هو الصـــداق، صـــداق الكلمة البليغة التفكير فيها، وأن تسقيها من ماء عقلك وذوقك.

يقول: [**غير ظاهرةٍ**]: إذًا الفصـيحة لا بد أن تكون ظاهرةً، نقول: على مســتوى الكلمة في حال إفرادها، لا على مســتوى الكلمة في حال تركيبها، وبالتالي لا تناقض بين مقولة السعد ومقولة السكاكي.

☼ كيف تجمع بين مقولة الســعد أن الكلمة الفصــيحة ظاهرة المعنى، وبين قول السكاكي أن سُفور المعنى قُبحٌ؟

نقول: هذا يتكلَّم في بابٍ، وذاك يتكلَّم في بابٍ، هذا يتكلَّم في شـــأن الكلمة فريدة، وذاك يتكلَّم في شـــأن الكلمة مجموعة إلى أخواتها أو أترابها، ليست ظاهرة المعنى، ولا مأنوسة، لا تكون هذا، ولا تكون هذا.

☼ طيب، هل ممكن أن تكون مأنوسة وغير ظاهرة المعنى؟

نعم ممكن، إذًا ليس كل مأنوسٍ لا بد وأن يكون ظاهر المعنى، هناك أناسٌ متمكنون في اللغة تجد الكلمات الغريبة أنيسة إلى قلوبهم.

إخوانَّا الذين يدمنون قراءة ديوان ذي الرُّمَّة، هذا الشـعر صـعبٌ جدًّا في كَلِمه، لا في تراكيبه، ولا في أخيلته، يعني لما تقيس مفردات ذي الرُّمَّة بمفردات امرئ القيس تعرف أين الصـعوبة، صـعوبة ذي الرُّمَّة تُحَل لو معك مُعجم، لو معك لسـان العرب حُلَّت القضـية، فلن تجد خيالًا طموحًا، ولن تجد تصـويرًا دقيقًا كمثله وإن كان هو يحب التشبيه.

لكن لما تذهب إلى امرئ القيس الكلمات الصعبة عنده قليلة جدًّا، فمن أين جاءت صعوبته؟ من أين سُمي أمير الشعراء عمومًا؟ من خياله، من تراكيبه، وليس من معجمه اللغوي، لازم أن تعرف مزية كل منهما.

لما أقرأ لأبي تمام أعرف مزيته، مزيته أنه يفعل شيئين: أنه يطلق خيالك، ويحْدِث ما يُسمى بوحدة الكون، الكون عنده واحد؛ لأن خالقه واحد، فيربط بين شيءٍ بعيدٍ جدًّا، وشيءٍ آخر بعيدٍ، تقول: ما العلاقة بينهما؟ يقول: بينهما علاقةٌ دفينةٌ؛ لأن الذي خلقهما واحدٌ.

الشيخ أحمد زكي رئيس تحرير (**مجلة العربي**) الشهرية، مجلة تأتي من الكويت، موضوعاتٌ رائعةٌ، واستطلاعاتٌ مصوَّرةٌ على أعلى ما تكون، أحمد زكي كان عميدًا لكلية العلوم بجامعة القاهرة، ثم صار وزيرًا للشئون الاجتماعية، ثم خرج من الوزارة فصار رئيسًا لجامعة الكويت، وهو الذي أسس جامعة الكويت، ثم كان رئيسًا لتحرير مجلة العربي.

هذا الرجل كان يكتب مقالين في المجلة، مقدمة المجلة، ثم يكتب مقالًا تحت عنوان (وحدانية الكون دليلٌ على وحدانية الله) فيأتيك بمظاهرَ كونيةٍ متنافرةٍ، ويبين لك فيها العامود الجامع بين خلق الفيل وخلق النملة، يقوم بتشريح النملة، وتشريح الفيل، ويقول لك: كيف أنهما -في تكوينهما- شيءٌ واحدٌ! لأن الذي خلقهما واحدٌ!

ثم جمع ذلك في كتابٍ سمَّاه (**مع الله في السماء**) موجود في الهيئة العامة للكتاب، وكتاب آخر (**مع الله في الأرض**)، اقرأهما، ستفهم هنا معنى الآية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:28].

فممكن يكون الشيء صعبًا جدًّا، لكن مع شخصٍ يأنس به فيقرأ ذي الرُّمَّة؛ لأن ذي الرُّمَّة عنده -ليس توحُشًا- الكلمات عنده مأنوسةٌ، فالأنس ليس موضوعيًّا، هو أمرٌ نفسيٌّ، لكن ظهور المعنى أمرٌ موضوعيٌّ.

لكن أن تأنس بالكلمة، قد لا تأنس بكلمةٍ وغيرك يأنس بها، وقد لا تأنس بكلمةٍ اليوم، وبعد ردحٍ من الزمان تأنس بها، فالمسألة مسألةٌ نسبيةٌ.

☼ **فهل فصاحة الكلمة تجمع بينهما؟ هل لا بد أن يكونا معًا؟ لازم تكون ظاهرة المعنى وتكون مأنوسة المعنى؟**

قال: لا.

☼ **هو لم يقل هذا هنا، طيب، من أين أخذت أنت هذا الكلام؟**

قلتُ لك: أخذته لما أعاد أداة النفي، لم يعطِف مأنوسةً على ظاهرةٍ، لو عطف مأنوسةً على ظاهرةٍ فالاثنتين دخلتا في سياق (غير) أي الاثنتان منفيتان، لكن أعاد أداة النفي، لما يعيد الأداة يتغيَّر الأمر.

☼ من أين عرفنا هذا؟

نقول: ارجع إلى آخر سورة الفاتحة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾[الفاتحة:7]. لماذا لم يقل: (غير المغضوب عليهم والضالين)؟ هل يصلُح أن يقول هذا؟ يصلُح، معطوفٌ على مدخول ﴿غَيْرِ﴾، لِمَ أعاد ﴿وَلا﴾؟ قال: لأن صراط المغضوب عليهم ليس هو هو صراط الضالين، فلما افترقا كان من حق كلمة ﴿الضَّالِّينَ﴾ أن يؤتى لها بأداةٍ.

لما قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:59]. كان ممكن في هذه الآية أن يقول: (أطيعوا الله والرسول)، فلو قال ذلك لجعل رسول الله في مصاف أولي الأمر، وبالتالي لا تُطع الرسول إلَّا إذا تأكدتَ أنه موافقٌ لأمر الله، ويقول: ليس ذلك، ما عليك إلَّا أن تسمع أمر رسول الله ونهيه وأن تطيع.

إذًا كلام رسول الله -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لا يحتاج أن تقيسه على القرآن؛ لأنه لن يكون إلَّا متوافقًا مع القرآن؛ لأن كلام رسول الله ليس إلَّا تبيينًا لكلام الله، والتبيين هو البيان، تبيين الشيء هو نفس الشيء، فهما سواء، فلما أعاد قال لك: أطع كلام رسول الله، ليس كلنا يعرف توافق حديث ما مع آية ما! هذا يحتاج خرِّيتًا لكي تعرف أن هذا الحديث مرتبطٌ بآية كذا.

☼ مَنْ يعلِّمني هذا؟

يوجد كتابٌ اسمه (**السُّنَّة بيانٌ للقرآن**) لشيخنا الجليل إبراهيم الخولي، من أجل علماء البلاغة في زمانه، لما تقرأ للشيـخ إبراهيم، كما أقول دائمًا: لما تقرأ لعالمٍ متمكن تقرأ له ثلاث مرات! مرة تفهم الكلام العلمي الذي فيه، ثم أقرأه لأعرف كيف هو يفكر؟ ثم أتعلَّم منه كيف عبَّر عن تفكيره الغريب هـذا، إذًا مرة لفهم المحتوى العلمي، مرة لمنهجية التفكير، ومرة لمنهجية التعبير، لكن مع مَنْ؟ مع الأعيان، مع أعلام النبلاء.

تعرفون كتاب (**سِـيَر أعلام النبلاء**)؟ هذا يدخل في برنامجك القرائي، كل يوم تقرأ سـيرة عالمٍ، الكتاب تناول الصـفوة من النبلاء، ليس كل النبلاء، اقرأه لتعرف أين أنت؟! ضـع العالم الذي كتبه لك الخطيب، وضـع نفسـك في كفة الميزان الأخرى، ستجد الرجل في السماء، ونحن في سابع أرض! كلما قرأتَ في مثل هذا الكتاب لن ترفع عينك من الأرض! تعرف قيمتك.

الآن في مشـيخة الأزهر كتاب اسمه (**رسـائل الحكيم**) فيه حوالي خمس رسـائل للشـيخ الحكيم الترمذي، حقَّق الكتاب الشـيخ عبد الفتاح بركة، هذا الرجل العلامة، هو أستاذ العقيدة والتصوف، أريدك قبل أن تقرأ رسائل الشيخ الحكيم اقرأ تعليقات الشـيخ عبد الفتاح بركة، واعرف هذا الرجل الذي كان عضـوًا في هيئة كبار العلماء، أريدك أن تقرأ تعليقاته -الهوامش- سـتعرف مَنْ هذا الرجل الصموت، الذي لا يتكلَّم، ثم اقرأ للشيخ الحكيم الترمذي.

يقول: المأنوس الوحشـــي -هذا الغريب- شـــيئان: إما أنه يحتاج إلى أن ترجع إلى معجم اللغة، وهذا يرجع إلى مستواك العلمي، وهذا الجزء نسـبيٌّ؛ أن تكون الكلمة بحاجةٍ إلى مراجعة أسفار اللغة لمعرفة معناها، فهذا نسبيٌّ، يختلف من شخصٍ إلى شخصٍ آخر، ويقول: مثل كلمة (جحمريش).

ويذكر أمثلة مثل القصــة الطريفة للرجل النحوي أبو علقمة لما ركب حماره فوقع في الســـوق، فتجمَّع الناس عليه، وهو نحويٌّ، فقال: "**ما لكم تكأكأتم عليَّ كتكأكئكم على ذي جِنَّةٍ؟ افرنقعوا**".

طيب، أبو علقمة هذا ألا يعرف أنه في السوق؟! ويعرف أن هؤلاء الناس لا يفهمون ما يقول؟! ويعرف أن يقول كلامًا غير هذا؟! يقول مثلًا: ما لكم تجمَّعتم عليَّ؟ تفرَّقوا، فهذا معنى الكلام، أتراه قد قصـــد هذا الكلام؟ إن لم يكن قد قصد فهو مجنونٌ!

هو أراد أن يصـــوِّر ما فعلوه بالكلمة: "**تكأكأتم**"، انظر الكلمة! أي تجمعتم عليَّ تجمُّعًا لا مثيل له! ولا يُطاق كما لا تُطاق كلمة "**تكأكأتم**"!

ثم يريد منهم أن يتفرَّقوا، هل تفرُّقًا هينًا واحد تلو الآخر؟ أم يتفرقوا جميعًا؟ قال: "**افرنقعوا**"، يريد منهم أن يتركوه في آنٍ واحدٍ، فكلمة "**افرنقعوا**" معناها أن التفرُّق يحدث بسرعةٍ شديدةٍ، فهو يصوِّر لهم ما يريده من خلال ما سمعوا منه صوتيًّا، ثم أنه يريد أن يقول لهم: إنكم عندي أشبه بالحُمُر، لا تفهمون ما أقول.

فبالتالي لما أقرأ كلمة "**تكأكأتم عليَّ**" وكلمة "**افرنقعوا**" في السـياق الذي قيلت فيه أقول: وإن تكن الكلِم غير فصيحةٍ لقومٍ فإنها بليغةٌ في سياقها؛ لأنها جاءت لغايةٍ، وجاءت مطابقةً لواقع الحال، وقد يكون الشـيء غير مأنوسٍ ولكن المقام يقتضيه.

ولو ذهبتَ إلى كلام سيدنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وسيدنا أبي بكرٍ في بعض المقامات، الرسول قال كلامًا غير متداوَل؛ لكن السياق يقتضيه، والذين قرأوا كتب رسـول الله -صـلَّى اللهُ عليه وسـلَّم- إلى القبائل والملوك، سيجد أنه أرسل إلى بعض القبائل كتبًا لا يستطيع مجمع اللغة العربية أن يعرف معناها إلَّا عن طريق المعجم؛ لكنها سـتذهب إلى القبيلة وكأنه يكلِّمهم كلامًا عاديًّا جدًّا، فاستعمل اللغة التي تليق بهم تأليفًا لقلوبهم.

أرأيتَ ماذا يفعل الرسـول صـلَّى الله عليه وسـلَّم؟ يكلِّم ضـيفه بلغته، ليأنسوا له، يقول: تركتُ لك لساني من أجلك، تركتُ لغتي التي درجتُ عليها وبقيتُ معك؛ لأني رأيتُ لغتك أجمل، أرأيتَ إلى الأنس؟!

☼ وبالتالي لما تذهب إلى العراق -وأنت رجلٌ مالكيٌّ- تصلِّي على مذهب العراقيين؟ أم تصلي على مذهب مالك؟

الأدب أن تصلي كما يصلي مَنْ أنت فيهم، اترك مذهبك، واتبع مذهب القوم الذين أنت فيهم، ولما تعود إلى بلدك عُد لمذهبك.

ذهبتَ مثلًا للخليج، أنت ترتدي (بدلة) غاية في الأناقة، وأصبحتَ أستاذًا في الجامعة هناك، فهل ستذهب إلى الجامعة بالبدلة؟ لا، البس مثلهم، نوعٌ من المؤانسة، من تأليف القلوب.

فتأليف القلوب ثُمن ما تُبذل فيه الزكاة، أليست مصرفًا من مصارف الزكاة؟ فإذا كنا نؤلِّف القلوب، نعطي الزكاة حتى لمن كان كافرًا، فهو المصرف الوحيد الذي يجوز أن يُصرف فيه لغير المسلم، ممكن من زكاتك تعطي لجارك النصراني إن كان في حاجةٍ تأليفًا لقلبه.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألَّا إله إلَّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وأسأل الله تعالى أن يصرف عنا ما لا يرضيه، وأن يصرفنا عمَّا لا يرضيه، وأن يشغلنا بما يحب ويرضى، اللهم لا تدع لنا ولحاضرنا ذنبًا إلَّا غفرته، ولا همًّا إلَّا فرَّجته، ولا دَيْنًا إلَّا قضيته، ولا حاجةً من حوائج الدنيا إلَّا يسرتها يا رب العالمين، وأن تجزي مَنْ جعلته سببًا لهذا المجلس خير الجزاء يا رب العالمين.

****